إسهامات البحث الأثري
في الكشف عن جوانب من
واقع البادية الأندلسية

حظيت أرياف أوربا باهتمام المؤرخين منذ مطلع القرن الماضي، وقد تزايد هذا الاهتمام واتخذ مسارات خاصة بعد النقلة النوعية التي أفضت إليها أبحاث المؤرخ الفرنسي مارك بلوك (Marc Bloch)[1].

ومما لا شك فيه، أن هذا الاهتمام يجد ما يبرره: فجميع القضايا التي يتناولها البحث التاريخي ذات صلة بعالم الأرياف، مثل البنيات السياسية والبنيات الاقتصادية والبنيات الاجتماعية والمؤسسات القانونية... وهذا ما يفسر وفرة وتنوع الأبحاث والدراسات التي صدرت منذ ثلاثينيات القرن الماضي على شكل منوغرافيات إقليمية ودراسات ذات طابع تركيبي ومقالات وأعمال الندوات والملتقيات العلمية.

وأهم ما يلاحظه المتتبع لهذا الإنتاج هو ذلك التحول الذي حدث في المناهج والمقاربات والتمثلات منذ ربع قرن.

وإذا كان البعض يعزي هذا التحول إلى كون المؤرخين أصبحوا اليوم يملكون من الوسائل والأدوات والإمكانيات أكثر مما توفر لمارك بلوك وبالتالي، أصبحوا مؤهلين أكثر لاستنطاق مضامين النصوص، فإننا إذ لا ننكر ذلك، نعتقد بأن جانبا من هذا التحول حدث تحت تأثير التقدم الهائل الذي حققه البحث الأثري المتعلق بالعصر الوسيط (l'archéologie médiévale).

([1]) يعد من أبرز الباحثين في اقتصاد ومجتمع فرنسا في العصر الوسيط، دعا إلى ضرورة تغيير مناهج البحث، وأسس لهذا الغرض رفقة زميله لوسيان فيفر (Lucien Febvre) المجلة الشهيرة «حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي» (Annales d'histoire économique et sociale) التي لازالت تصدر إلى اليوم باسم «الحوليات، التاريخ، العلوم الاجتماعية» (Annales, Histoire, Sciences Sociales)، كما أنجز عدة أبحاث قبل أن يلقى حتفه رميا بالرصاص على يد القوات النازية يوم 16 يونيو 1944، ومن بين أهم ما صدر له:

- Les caractères originaux de l'histoire rurale française (1931).
- La société féodale (1939).

ويكفي أن نذكر في هذا الشأن، وعلى سبيل المثال لا الحصر، أن المؤرخين الذين اعتمدوا على النصوص وبعض الشواهد الطوبونيمية ظلوا يعتقدون لفترة طويلة بأن السكن كان ثابتا في مناطق غرب أوربا قبل سنة ألف. وإذا بالتنقيبات التي تم القيام بها في عدة مواقع بفرنسا وإنجلترا وألمانيا أثبتت عكس ذلك الاعتقاد[2].

وفي نفس السياق يجدر التذكير بأن مسألة ندرة المحاصيل الزراعية في أرياف غرب أوربا خلال القرن التاسع للميلاد أصبحت اليوم من المسلمات التي لا تثير حفيظة أي باحث[3]. ويعود الفضل في ذلك مرة أخرى إلى عمليات التنقيب التي قام بها بعض الباحثين الأثريين في بعض المدافن بفرنسا، حيث أفضت تلك التنقيبات إلى الكشف عن مجموعة هياكل و عظام آدمية لا تحتوي على مادة الكالسيوم (décalcifiés). مما ينهض دليلا بأن الفترة المذكورة تميزت بسوء تغذية مزمنة[4]. بينما مكنت حفريات أخرى من تسليط الضوء على حركة تنقل دائبة للأكواخ حدثت خلال نفس الحقبة. وقد ربط المؤرخون هذه التنقلات بحاجة أفراد المجتمع الملحة للمواد الغذائية لإشباع حاجياتهم، ولذلك كانوا ينتقلون بحثا عنها[5].

---

(2) لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى:

Jean Chapelot et Robert Fossier, Le village et la maison au Moyen Age, Paris, Hachette, 1980.

(3) Pierre Bonnassie, « Consommation d'aliments immondes et canibalisme de survie dans l'Occident du Haut Moyen Age », Annales E.S.C. N : 05, septembre –octobre, 1989, pp 1035-1056.

(4) Robert Fossier, Enfance de l'Europe : aspects économiques et sociaux, Paris, P.U.F., 1982, Tome I, p. 112 et suivantes.

وللاطلاع على حصيلة بعض التنقيبات في مواقع محددة يمكن العودة إلى:

Marième Bouali et Sophie Vattéoni, Conditions de vie à la fin de l'Antiquité et au Haut Moyen Age : changement ou continuité, approche méthodologique. Exemple de deux nécropoles suburbaines, Beauvais (Oise) IVe-Ve siècle et Vaison (Vaucluse) Ve-VIe siècle, in Ville et campagne en Europe occidentale (Ve- XIIIe siècle), Paris, éd. du C.N.R.S., 1991, pp. 25-39.

(5) Robert Fossier, Enfance…, op.cit.

وبناء على هذه الأمثلة القليلة، نخلص إلى القول بأن المعاينات الأركيولوجية وعمليات السبر الأثري التي قام بها الباحثون الأثريون أسدت خدمات جلّة للمؤرخين. وانعكست نتائجها بالإيجاب على الأبحاث التي تتخذ من الأرياف إطارا لها.

والملاحظ أن أرياف الأندلس ظلت خارج دائرة اهتمام الباحثين والمؤرخين الأوربيين رغم أنها تنتمي جغرافيا للمجال الأوربي. **ومن حسن الحظ أن ثلة من** الباحثين الأثريين والمؤرخين الفرنسيين والإسبانيين انتبهوا لهذا القصور، فانبروا منذ سنوات قليلة مضت لملأ هذه الثغرة.

لقد أتاحت لنا عملية إنجاز رسالة جامعية لنيل دكتوراه السلك الثالث في التاريخ الأوربي الوسيط، وكذلك عملية تدريس مادة تاريخ العصر الأوربي الوسيط منذ قرابة عشرين سنة إمكانية الاطلاع على عدد مهم من تقارير وخلاصات الأبحاث الأثرية وعدد مهم من الدراسات التي تهم تاريخ أوربا في العصر الوسيط. فارتأينا استغلال هذه التجربة وما ترتب عنها من رصيد معرفي للإسهام في الجهود المبذولة حاليا والتي تروم إماطة اللثام عن جوانب من واقع الأرياف الأندلسية خلال فترة الوجود العربي-الإسلامي. وتمثل هذا الإسهام في أطروحة جامعية أنجزناها لنيل دكتوراه الدولة في **موضوع:** «الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد[6].

تناولنا في هذا البحث مختلف القضايا التي تهم النشاط الزراعي كأشكال الاستغلاليات ونظم استثمار الأراضي وأساليب وطرق العمل الزراعي وأنواع المحاصيل الزراعية ومناطق إنتاجها ومظاهر العلاقة بين الإنتاج الاستهلاك وأنواع وكمية المحاصيل التي كانت تدخل ضمن عمليات **التبادل التجاري والعوامل المؤثرة في العمل الزراعي والإنتاج خلال الفترة موضوع البحث.**

ولمعالجة هذه القضايا والإجابة عما تطرحه من تساؤلات حاولنا استغلال ترسانة من النصوص العربية الإسلامية المخطوطة والمطبوعة؛ وكذلك مجموعة من النصوص المسيحية بالإضافة إلى التقارير والخلاصات التي وضعها ثلة من الباحثين

---

(6) جرت مناقشتها برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة بتاريخ 03 يوليوز 2003، و تم طبعها و صدرت عن مطبعة الجسور بوجدة سنة 2007.

الأثريين حول عمليات السبر والتنقيب التي تم إنجازها منذ سنوات أو التي لازالت في طور الإنجاز.

وقمنا بدعم هذه التقارير والخلاصات بمعاينة ميدانية لبعض الحفريات في ظهير مدينتي غرناطة ومورسية ومعاينة عدد مهم من اللقى تم الكشف عنها في مواقع ريفية.

وقد أدرجنا هذه المادة الأركيولوجية ضمن المادة المصدرية المعتمدة انطلاقا من قناعتنا بأن عملية إعادة بناء الماضي تقتضي الاستناد إلى النص المكتوب وإلى البقايا واللقى الأثرية. على اعتبار أن مفهوم المصدر كما هو متداول في الجامعات الأوربية يستعمل في دلالته الحقيقية كمنبع للمعرفة. وبذلك تشمل المصادر (Les sources) النصوص المخطوطة والمطبوعة والبقايا واللقى الأثرية ذات الصلة بالعصر الذي يندرج في إطاره موضوع البحث.

ولا ننكر بأن الحصيلة التي أسفرت عنها الحفريات التي قامت بها الفرق التابعة لكل من دار فيلاسكيس (Casa de Vélasquez) بمدريد وجامعة ليون الثانية (Lyon II) وجامعة مورسية (Murcia) وجامعة غرناطة (Granada) قدمت لنا إفادات بالغة الأهمية، حيث أمدتنا بعناصر أكدت صحة المعطيات التي تتضمنها بعض النصوص. كما أمدتنا بإجابات عن تساؤلات لم تجب عنها النصوص المتوفرة. وسنحاول في هذا العرض استعراض مجموعة نماذج توضح ذلك، نبدأها بنموذج يهم مراكز الاستيطان في أرياف الأندلس.

فمن المعروف أن القرى شكلت إلى جانب الحواضر مراكز استقرار للسكان، وقد كانت منتشرة بين مدن الموسطة وشرق وغرب الأندلس. وكل مجموعة قرى شكلت شبكة مرتبطة بالمركز الحضري الذي يشرف عليها.

ومن المؤسف حقا أن الجغرافيين ومؤلفي كتب المسالك والممالك والباحثين المحدثين قليلا ما توقفوا عند بعضها. فقد توقفوا عند مالقة وغرناطة وإشبيلية وألمرية... وتوقفوا مليا عند قرطبة. وتحدثوا عن المراكز الحضرية الصغرى المنضوية في أعمالها كألستجة وبلكونة وقبرة و غافق... ولكنهم لم يشيروا إلى مجموعة القرى أو التجمعات الريفية التابعة للحاضرة قرطبة. بحيث لا نملك سوى معلومات

ضئيلة جدا وباهتة عن قرى تابعة لها مثل جالطة وبشكلار و وزغة. ورغم ذلك، فلا ننكر بأن كتب الجغرافيا ومصنفات أخرى وأهمها كتب الفتاوى والنوازل تقدم للباحث مادة طيبة وتتضمن معلومات ذات قيمة بالغة. ومن قبيل هذه المعلومات ما أورده العذري حين ذكر بأن أعداد القرى التي يضمها كل إقليم من أقاليم قرطبة تراوحت بين 17 قرية (وهو عدد قرن إقليم بني مسرة) و102 قرية (وهو عدد قرى أقاليم أولية السهلة) [7].

وكذلك ما أورده ابن رشد في متن سؤال ورد عليه من شرق الأندلس بخصوص سوء تفاهم حصل بين سكان أربعة عشر قرية حول المسجد الواجب إقامة الصلاة فيه. يستفاد منه بأن أصغر القرى حجما كانت تضم إثنا عشر مسكنا وأن أكبرها كانت تضم ثلاثين مسكنا[8].

وقد أكدت صحة بعض هذه الأرقام حفريات باشرها الباحث الإسباني خوليو نابارو بلاتون (Julio Navarro Palazon) بضواحي مدينة مورسية[9]. وحفريات أخرى قام بها الباحث الفرنسي أندري بازانا (André Bazzana) في بعض المواقع التابعة لمورسية وبلنسية[10]. وعمليات تنقيب مماثلة قام بها الباحث الإسباني بيدرو لوبيز إلوم (Pedro Lopez Elum) بمواقع تابعة لبلنسية[11]. أبانت فعلا أن معظم قرى القرنين الخامس والسادس للهجرة الحادي عشر والثاني عشر للميلاد كانت تتكون

---

(7) أبو العباس أحمد بن عمر العذري الدلائي، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965، ص.ص: 124-127.

(8) أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد القرطبي، فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، السفر الأول، ص: 783.

(9) انظر حول هذه الحفريات كتابه:

Excavaciones arqueologticas en la cuidad de Murcia durante 1984, Servicio Regional de Patrimonio Historico, Murcia, 1987

(10) تندرج هذه الحفريات ضمن أطروحة تقدم بها لنيل الدكتوراه الجامعة ليون الثانية بفرنسا تحت عنوان:

Archéologie de l'habitat médiéval dans l'ancien Shark al-Andalus, Lyon II, 1990.

تتكون الأطروحة من جزءان بالإضافة إلى عدة ملاحق .(نسخة مرقونة).

(11) انظر خلاصات هذه الحفريات في مؤلفه:

La Alqueria Islamica enValencia, Estudio arpueologico de Bofila siglos X a XIV., Edicion por Federico Domenech, Valencia, 1994.

من مجموعات سكنية صغيرة الحجم ومتجانسة إلى حد ما. وكل مجموعة منها كانت تشكل وحدة استيطان (un centre de peuplement) تضم عددا متفاوتا من المنازل يصل في المتوسط إلى عشرة منازل ملحقة بمزدرع (Terroir) وتابعة لمقاطعة ترابية (une circonscription territoriale) تمتد على مساحة تتراوح بين 100 و300 هكتار. وتفصل بين الوحدات بعضها البعض مسافات متفاوتة تتراوح عموما بين 1.5 و2 كلم. وقد كانت أعداد الوحدات متفاوتة تبعا لأهمية الموقع الذي تتواجد به. وتتراجع أو تتزايد تبعا لتراجع أو تزايد عدد السكان. وربما هذا ما نلمس صداه عند بعض المؤلفين، فقد جاء على لسان الزهري في معرض حديثه عن كورة تدمير أن بعض ضواحيها كانت توجد به ثلاثمائة قرية[12]. وأورد المقري نقلا عن «بعض المؤرخين» قوله: «إن عدد القرى التي على نهر إشبيلية إثنا عشر ألف قرية»[13]. وقوله: «وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية، في كل واحدة منبر وفقيه»[14].

وإذا كانت مثل هذه المعلومات قمينة بأن تدفع البعض إلى التقليل من أهمية الحفريات الأثرية بدعوى أن المصنفات أوردت منذ قرون كثيرا من المعطيات التي أسفرت عنها، فإننا على العكس من ذلك، نعتقد أنها ذات قيمة بالغة لأنها أكدت صحة كثير من المعلومات التي تضمنتها المصنفات. ولأنها أثرت بخلاصاتها و بما كشفت عنه من لقى (بقايا مرافق سكنية، قطع فخار، أدوات معدنية وخزفية وغيرها...) مرجعية المؤرخ الذي يود إنجاز أبحاث حول مراكز الاستيطان بالأرياف الأندلسية.

وتتجلى إسهامات هذه التنقيبات أكثر عند الرغبة في التعرف على بعض جوانب النشاط الزراعي في تلك الأرياف، وهذا ما ينقلنا للتطرق إلى النموذج الثاني ويهم هذه المرة الأدوات التي كان يستعملها الفلاحون والمزارعون في العمل الزراعي. إذ تعتبر هذه الأدوات كما هو معلوم أساسية في النشاط الزراعي؛ وتعد من العناصر المؤثرة في

---

(12) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، Bulletin d'études orientales المجلد 21، دمشق، 1968، ص: 209.

(13) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، المجلد الأول، ص: 226.

(14) نفسه، ص: 458.

سير العمل الزراعي. ومن ثم، فإن التعرف عليها شرط أساسي لفهم ميكانيزمات الإنتاج الزراعي.

وانطلاقا من هذه الأهمية، فإن الباحث في مظاهر النشاط الزراعي في الأرياف الأندلسية ملزم بالتعريف بأنواع الأدوات التي كان يستعملها الفلاحون والمزارعون وبإعطاء فكرة عن شكلها؛ وملزم بإبراز وظيفتها في عملية الإنتاج.

ولا نحتاج للتأكيد بأن كتب التاريخ العام والمصنفات الأخرى لا تتضمن سوى معلومات محدودة تهم الأدوات المنتجة، في حين أنها تقدم فيضا من المعلومات حينما يتعلق الأمر بأدوات التخريب المستعملة في الحروب[15]. أما كتب الفلاحة التي كان من المفترض أن تخصص حيزا مهما للموضوع، فإنها لا تقدم سوى إشارات عابرة مقتضبة، وأحيانا غير واضحة.

فهي تورد بعض الأسماء كالمحراث والسكة والمسحاة والفأس والجاروف والسكين والمزبرة في سياق حقل دلالي جد مقتضب، مما يطرح صعوبات جمة عند محاولة معرفة الأداة المعنية بذلك الإسم سواء من حيث شكلها أو من حيث المادة المصنوعة منها لمعرفة مدى فعاليتها.

فإذا أخذنا آلة الحرث على سبيل المثال –باعتبارها أبرز وأهم الأدوات على الإطلاق[16]- إذ بواسطتها تتم عملية الحرث وقلب التربة سواء أريد زراعتها أو أريد غراستها، نجد أن ابن وافد لم يزد على أن قال بشأنها بأن عملية الحرث تتم باستعمال «السكة الكبيرة التي تعمل على قلب التربة بصورة جيدة»[17]. وتركنا بذلك في حيرة

---

(15) منها ما كان يصنع بالأندلس ومنها ما كان يجلب من غالة ومن كونتية قطالونيا. وللدلالة على كثرتها وتنوعها نذكر. أن الأمير يوسف بن تاشفين بعث قبل قيامه بالجواز الأول من اشترى له من الأندلس «العدّة وآلات الحروب،فاشترى له منها كثيرا». انظر كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص: 37.

(16) تتضح أهمية المحراث أيضا إذا علمنا بأنه كان معيارا حاسما في التمييز بين الفلاحين في أرياف أوربا، فالذين يملكونه ويستعملونه طبعا كانوا يسمون حراثين (des laboureurs)، والذين لا يملكون سوى سواعدهم كانوا مجرد عمال زراعيين يُدعون (les manouvriers). لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى كتاب جورج دوبي (Georges Duby).

Guerriers et paysans, VIIe-XIIe siècle. Premier essor de l'économie européenne, Paris, Gallimard, 1973, pp. 221-222.

(17) José Maria Millas Vaillicrosa, « La traduction castellana del tratado de agricultura de Ibn Wafid », al-Andalus, Madrid- Granada, 1943, Vol. VIII, p. 309.

من أمر هذه "السكة"[18]. هل هي القطعة التي يتوفر عليها المحراث والتي تقوم بشق الأرض؟ أم هي المحراث كله؟.

وعلى غراره خص ابن حجاج المسألة ببضعة أسطر حث فيها الفلاحين والمزارعين على ضرورة القيام بقلب تربة الأرض ثلاثة مرات بواسطة «(...)سكة فدان كبيرة لتقلب الأرض وتخرج شحمها»[19].

أما ابن بصال فيتحدث عن الحرث والقليب؛ ويستعمل كلمة "السكة" بمعنى الحرثة في قوله «(...) والقليب الذي على سكة واحدة، أفضل من العمارة الطيبة وأصدق في الزرع»[20]. ولكنه لا يورد أية إشارة عن الآلة الواجب استعمالها للقيام بذلك.

أما الطغنري الذي أخذ عن ابن بصال فقد حاول حل الإشكال الذي عن لنا على مستوى المصطلحات الإجرائية، وذلك باستعماله للتسمية التي نطلقها اليوم على آلة الحرث، إذ أورد بأن «العمارة» هي أصل الزراعة، وتتم بعد حرث الأرض «بالمحراث»[21]. ثم عاد في موضع آخر خصّه للحديث عن عملية قطع أو قلع الأعشاب الضارة من الأرض المراد استثمارها، ليذكر بأن قطعها يتم «بالموالات على حرث الأرض بالسكة المبسوطة الأطراف التي تقطع العشب»[22].

وإذا كانت مسألة تكرار عملية قلب التربة لا تطرح إشكالا، فإن الذي يطرح الإشكال هو نوعية الآلة المستعملة لهذا الغرض. فإذا كان الأمر يتعلق بالمحراث الشبيه بالآلة التي ندعوها اليوم «المحراث التقليدي»، فهل كان يتم تزويده بأكثر من سكة؟ أي في كل مرة سكة حسب نوعية العمل المراد القيام به كما يفهم من قولة الطغنري.

---

(18) استعمل ابن وافد حسب النص المترجم عبارة « la rreja grande qui trantorne bien la terra ». وكلمة « rreja» في اللغة القشتالية تعني السكة (le soc).

(19) أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج، المقنع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية، تدقيق وإشراف عبد العزيز الدوري، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1982، ص: 14.

(20) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن بصال، كتاب الفلاحة، تحقيق وترجمة وتعليق خوسي ماريا ميباس بييكروسا ومحمد عزيمان، منشورات معهد مولاي الحسن، تطوان، 1955، ص: 57.

(21) أبو عبد الله محمد بن مالك الطغنري، زهر البستان ونزهة الأذهان، مخطوط رقم D1260، قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط، ص: 52.

(22) نفسه، ص: 56.

ونفس الإشكال تكرسه المعلومات التي قدمها أبو الخير الإشبيلي عن آلة الحرث، حيث يذكر مخاطبا المهتم بزراعة الكتان: «فإذا فرغت من زريعته [أي الكتان] فاحرث عليه حرثا خفيفا بمحراث أملس لا يأخذ في العمق شيئا، و إنما هو ليستثر البزر بالتراب...» [23].

فهل ما أورده يفيد بأن هناك «محراثا أملس»؟ ومحراثا من نوع آخر؟ أم أن هذا التنوع ينطبق على السكك وليس على آلة الحرث؟.

ومن ثم، نقول بأنه يبدو من الصعب الحسم في المسألة. لاعتبارين. أولهما لأن علماء الفلاحة استعملوا في مصنفاتهم كلمتا محراث وسكة بدون دقة أو تمييز بينهما، مع العلم أن السكة هي أهم جزء في المحراث؛ وربما انطلاقا من أهميتها جعلوها هي المحراث كله. و ثانيهما لأن مصنفات أخرى وردت فيها إشارات إلى آلة الحرث لم يستعمل مؤلفوها كلمة « محراث» وإنما كلمة «آلة»[24]، وبعضهم لم يستعمل كلمة آلة في صيغة المفرد، وإنما في صيغة الجمع «آلات الحرث»[25]. لأن عمليتا الحرث والقليب لم يكن يعتمد للقيام بهما على المحراث وحده، بل إلى جانبه كانت تستعمل الأداة المسماة «المسحاة» (la houe). وربما هذا ما يفسر استعمال مؤلفي بعض المصنفات لعبارة «آلات الحرث».

وقد أورد ابن العوام في مؤلفه[26] نصا لابن بصال[27] يتضمن وصفا مقتضيا للمسحاة على أنها عبارة عن قطعة حديدية على شكل لوحة متوسطة الحجم مثبتة في مقبض من خشب، يقوم الشخص الذي يستعملها بحفر التراب وجذبه إلى الخلف عند مقدمة قدميه.

---

(23) أبو الخير الشجار الإشبيلي، كتاب الفلاحة، حققته ونقلت نصه إلى الإسبانية خوليا ماريا كراباتا برابو (Julia Marla Carabaza Bravo), منشورات الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1991، ص: 191.

(24) أورد هذه الكلمة ابن حزم القرطبي في كتاب المحلى، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الثامن، ص: 210، وص: 211.

(25) أورد هذه الصيغة المقري في كتاب نفح الطيب، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص: 595.

(26) نقصد هنا مصنفه في الفلاحة الذي حققه الباحث الفرنسي كليمان مولي (Clement Mullet) وصدر باللغة الفرنسية عن دار بوسلامة بتونس في جزأين سنة 1977.

(27) لم يرد النص في النسخة التي حققها ونشرها خوسي ماريا مياس بييكروسا ومحمد عزيمان، وأورده ابن العوام في الجزء الأول، ص.ص: 496-497.

والجدير بالتذكير، أن المسحاة على عكس المحراث يجب مبدئيا أن تكون **الأعداد المتوفرة** منها كثيرة نسبيا، لأنها صغيرة الحجم؛ ولأن استخدامها يتطلب أحيانا **عملا** جماعيا، خاصة عندما تقلب الأرض لتغرس بشجيرات الكروم. حيث يقوم بعملية القلب مجموعة عمال مزارعين موزعين إلى عدة صفوف حسب مساحة قطعة الأرض المراد قلب تربتها.

ونشير في هذا الصدد أن الأبحاث أكدت أن عمليتا الحرث والقليب كانتا تتمان في أرياف أوربا المتوسطية بواسطة هاته الأداة[28].

ولحسن الحظ أن فريقا من الباحثين الأثريين من جامعة مورسية (Murcia) عثر في شهر شتنبر 1985 على مائة قطعة أثرية تعود إلى القرنين الخامس والسادس للهجرة/الحادي عشر والثاني عشر للميلاد بمغارة تقع بضواحي قرية لقور (Liétor) التابعة لكورة تدمير[29]. ومن بينها عدد قليل من الأدوات تنطبق عليها المواصفات التي أوردها ابن بصال[30].

وما لا شك فيه، أن هذا الاكتشاف قد أزاح الغموض الذي يكتنف الصورة التي تقدمها مختلف المصنفات، وخاصة كتب الفلاحة، عن المسحاة وعن الأدوات البسيطة الأخرى التي كانت تستعمل في أعمال الزراعة والغراسة. وقدم للباحثين ولعموم المهتمين عينات من الأداة المعروفة بالمسحاة (Azada) وعينات من المناجل والمزابر

([28]) انظر ما أورده جورج دوبي (Georges Duby) في الموضوع في كتابه:

U économie rurale et la vie des campagnes dans l'Occident médiéval, Paris, Flammarion, 1977 Tome I, pp. 78-86.

وما أورده شارل باران (Charles Parain) في كتابه:

Outils ethnies et développement historique, Paris, éditions sociales, 1979, pp. 30-32.

([29]) للاطلاع على تفاصيل هذا الاكتشاف يمكن للعودة إلى كتاب:

Julio Navarro Palazon y Alfonso Robles Fermandez, Liétor Formas de vida rurales en Sarq al-Andalus a traves de una ocultacion de los siglos X-XI, centro de Estudios Arabes y Arqueologicos « Ibn Arabi », Ayuntamento de Murcia y Instituto de Cooperacion con el Mundo Arabe, Murcia, 1996.

([30]) انظر صورا لها ضمن ملحق هذا العرض.

والسكاكين والأكياس التي كانت تعبأ فيها الحبوب بالإضافة إلى قطع غيار خاصة بالأرحي وعدد من الموازين وقناديل الإضاءة.

ورغم أهمية هذا الإنجاز، فإن معرفتنا عن المحراث وعن عملية الحرث بوجه عام لازالت غير متكاملة. طالما أن كثيرا من التساؤلات لازالت مطروحة. فنحن لا نعرف ما إذا كان المحراث المستعمل يتوفر على مقبض (Mancheron) واحد أو على مقبضين كما كان الأمر في أرياف أوربا حيث استعمل النوعان من المحاريث (la charrue et l'araire). كما لا نعرف ما إذا كان يتوفر على مقلب (versoir) عادي أو مائل (dissymétrique)، لأن الذي يتوفر على مقلب عادي يلقي بالتراب على اليمين وعلى اليسار حين تقوم السكة بشق الأرض، أما الذي يتوفر على مقلب مائل فإنه لا يلقي التراب إلا على جانب واحد. كما أننا لا نملك معلومات عن تقنية ربط المحراث إلى الحيوانات التي تقوم بجره (l'attelage). ولا نحتاج إلى التأكيد بأن التعرف على تلك التقنية من شأنه أن يسلط الضوء على مستوى فعالية عملية جر المحراث، وبالتالي، على مستوى فعالية عملية الحرث أو القليب.

وفي مجال ذي صلة كذلك بالنشاط الزراعي وهو مجال الري، نذكر بأن المصادر الخطية، وأهمها المصنفات الجغرافية قدمت للباحثين ولعموم القراء مادة غزيرة تترك الانطباع بأن الأندلسيين استعملوا منظومة تقنية رفيعة المستوى لازالت إلى اليوم محط تقدير وإعجاب الدارسين.

غير أن إفادات هذه المصنفات تبقى في اعتقادنا محدودة، على اعتبار أنها لا تمد الباحث بمعلومات حول الجانب التطبيقي في عملية الري، وخاصة ما يتعلق بالتقنيات التي تسخر القنوات الباطنية. حيث لا تسلط ما يكفي من الضوء حول طبيعتها؛ وحول الأدوات والمواد المستعملة في إنجازها. ومن ثم، فإن النصوص التي تحدثت عنها لا تتجاوز في الأغلب الأعم مرحلة الصياغة الإنشائية والانطباعية. وعلى العكس من ذلك، فإن عمليات السبر والتنقيب التي اهتمت بتقنيات استغلال المياه كشفت عن كثير من الحقائق الميدانية، رغم أن دائرة التنقيب لازالت ضيقة والنتائج غير شاملة. ومع ذلك، فقد أفضت إلى الكشف عن كثير من التجهيزات والوسائل والأدوات المستعملة في الري. وأبرزت طبيعة توزيعها المجالي وطرق استغلالها في تصريف

المياه. كما مكنت في كثير من الحالات من إبراز الأطراف الاجتماعية التي أقامت تلك التجهيزات.

وقد شملت أهم الحفريات مواقع بجزيرة ميورقة وجزر البليار، ومواقع بشرق الأندلس. وتعتبر هذه الأخيرة أهمها، لأنها تمت في منطقة معروفة بمناخها شبه الجاف. كانت الزراعة فيها تتطلب كميات كبيرة من المياه. وبالتالي، فهي تمثل أحسن نموذج لإبراز إسهامات البحث الأثري في الكشف عن بعض الحقائق. كما تعتبر أحدث الحفريات، حيث تم القيام بها في صيف سنة 1983 من قبل فريق من الباحثين التابعين لمؤسسة دار فيلاسكيس وجامعة ليون الثانية[31]. وقد تركزت أعمال التنقيب بأحد المواقع بمنخفض الأندرش (Andarax) التابع لألمرية.

أبانت الحفريات بأن عملية الري كانت تتم في الدائرة الترابية التي شملها التنقيب بواسطة مياه الأمطار ومياه واد يشقها. وبما أن المنطقة تنتمي إلى نطاق مناخي شبه جاف كما سبق الذكر، فقد كانت التساقطات تقل بها كثيرا خلال فصل الصيف، وأحيانا تنعدم تماما. كما كانت مياه الوادي تتراجع بدورها. ومع ذلك، فقد كانت تستغل للري بواسطة قناة رئيسية باطنية (cimbra) على شكل نقف في سرير الوادي يمتد على طول 250 مترا، ويقع تحت سطح المجرى على عمق يتراوح بين أربع وخمسة أمتار؛ عرضه حوالي متر وجانباه على شكل جداران من أحجار مصفحة. يبلغ علو كل واحد منهما حوالي متر.

وتتفرع عن القناة الرئيسية عدة سواقي باطنية وأخرى سطحية ترتبط فيما بينها عن طريق بالوعات (des regards). بحيث يبلغ طول السواقي الباطنية 2500 متر من مجموع طول السواقي التي تم الكشف عنها والبالغ 3800 مترا، ومعظم السواقي مبلطة في جزءها القاعدي.

---

(31) للوقوف على حيثيات هذه التنقيبات، وعلى وصف دقيق للموقع وللمشروع المائي الذي تم الكشف عنه، نحيل القارئ على التقرير الذي قدمه André Bazzana, Maryelle Bertrand, Patrice Cressier, Pierre Guichard et Yves Montmessin تحت عنوان:

L'hydraulique agraire dans l'Espagne médiévale, in l'eau et les Hommes en Méditerranée, Paris, éd. Du C.N.R.S., 1987.

تربط مجموع هذه السواقي بين القناة الرئيسية (النقق) والمجال المسقي بما فيه حوض الوادي. وتفاديا للخسائر التي قد تترتب عن فيضانات محتملة للوادي، فقد تمت تهيئة أراضي الحوض والأراضي القريبة من الحوض على شكل مدرجات. ومن ثم استوجب الأمر الاستعانة ببعض الناعورات لرفع المياه إلى المستويات العليا. وقد كانت هذه الآليات ومجموع السواقي موزعة ميدانيا بشكل يسمح لجميع الاستغلاليات المنتشرة في الدائرة الترابية التي وقع بها التنقيب الاستفادة من مياه الوادي للري.

يتضح من خلال الوصف المقتضب لهذا المشروع المائي بأن الأمر يتعلق بإنجاز مائي معقد ينم عن مهارة في استغلال المياه والتعامل مع المعطيات المناخية والطوبوغرافية بحكمة واعتمادا على مواد بسيطة ومحلية.

والجدير بالذكر أن بقايا المواد التي تم الكشف عنها في هذا الموقع، وفي مواقع أخرى قريبة تمثلت في قطع أحجار مصقولة وأخرى عادية، وقطع من الآجر والفخار المطبوخ وقطع من الخشب والحديد.

وغني عن البيان أن النصوص لا تتضمن معلومات بهذه الدقة حول تقنيات استغلال المياه.كما أن اللقى التي تم الكشف عنها بالغة القيمة لا تتضمن النصوص حديثا عنها، مما يزكي أهمية عمليات السبر والتنقيب في الكشف عن حقائق لا تفصح عنها المصادر الخطية.

يتضح انطلاقا من النماذج الثلاث التي قدمناها بأن إسهامات البحث الأثري تبدو حاسمة في التعرف على جوانب من واقع الأرياف الأندلسية خلال فترة الوجود العربي الإسلامي. ويتضح هذا الأمر أكثر إذا علمنا بأن قسطا كبيرا من المظان والنصوص تعرض للإتلاف. وإن المصنفات المخطوطة والمطبوعة التي تتألف منها المكتبة الأندلسية وضعت من قبل نخبة ينتمي أفرادها للوسط الحضري. لم يجهدوا أنفسهم في إيلاء العالم الريفي ما يستحقه من عناية. وبالتالي، فإن معرفتنا عن أوضاعه وحقائقه معرفة محدودة.

ورغم ذلك، فيجب التنبيه بأن حصيلة المعاينات الأركيولوجية وعمليات السبر الأثري التي تم انجازها أو التي هي في طور الإنجاز لازالت محدودة، لأن عدد العمليات قليل، ولأن المواقع التي همتها والتي تهمها حاليا معدودة. وفضلا عن ذلك،

فإن جهود الباحثين الأثريين لازالت، في اعتقادنا، مشتتة نظرا لانعدام أو قلة التنسيق بين هؤلاء الباحثين أنفسهم وبينهم وبين المؤرخين المهتمين بعالم الأرياف.

ولهذا نعتقد، بأن الوقت قد حان لرصد حصيلة المعاينات وعمليات التنقيب لتحديد التوجهات الممكن أن تسير وفقها مستقبلا بالنظر إلى الإشكاليات الكبرى التي يطرحها تاريخ الأرياف الذي أصبح يستأثر منذ سنوات قليلة باهتمام عدد كبير من الباحثين الشباب الأوربيين والعرب على حد سواء.

ونقترح لتحقيق هذا المسعى مشروع برنامج طموح نترك أمر استعراض خطوطه لمناسبة مقبلة.

ملحق

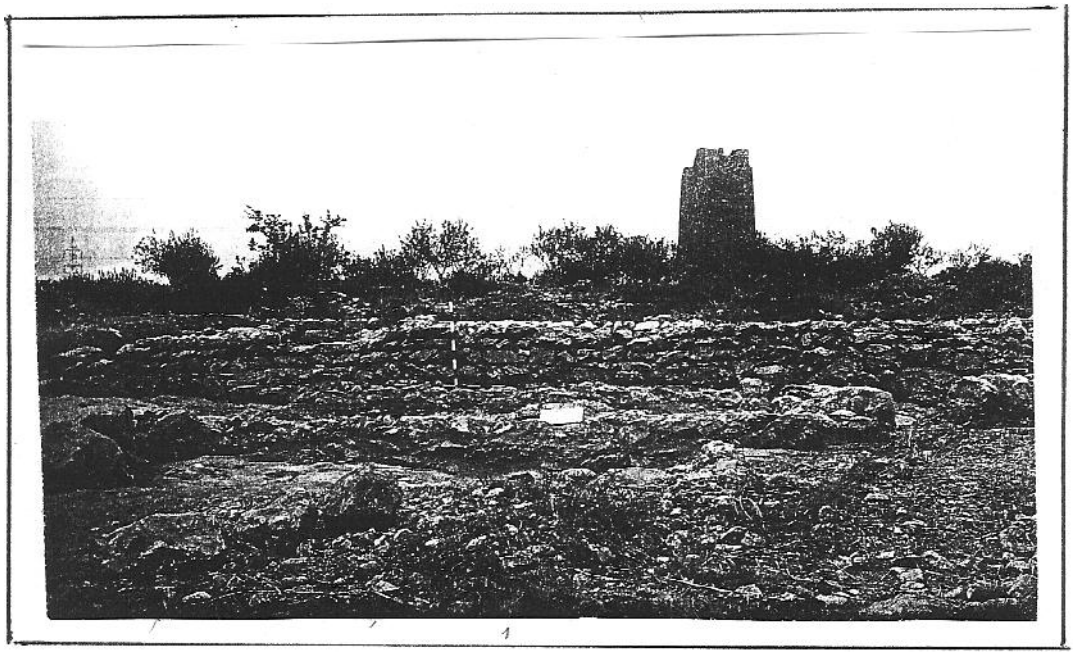

صورة تمثل جانبا من الحفريات التي قام بها بيدرو لوبيز إلوم في إحدى القرى بضواحي مدينة بلنسية

مصدر الصورة La Alqueria Islamica en Valencia…, op, cit, p : 107.

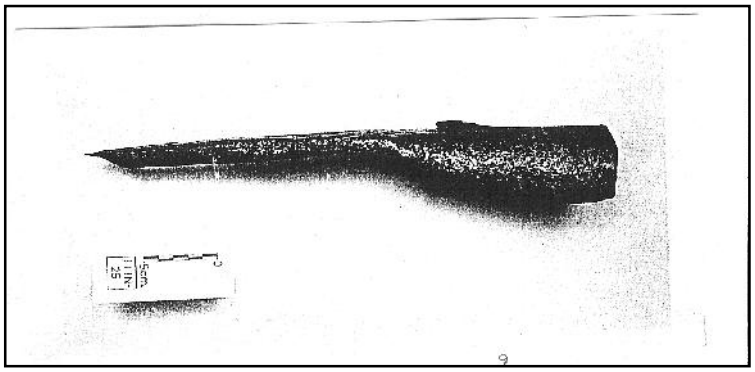

صورة تمثل سكة (reja) تم العثور عليها مع قطع أثرية أخرى في مغارة بضواحي لقور (كورة تدمير)

مصدر الصورة: Liétor : formas de Vida rurales…, op. cit. p. 55

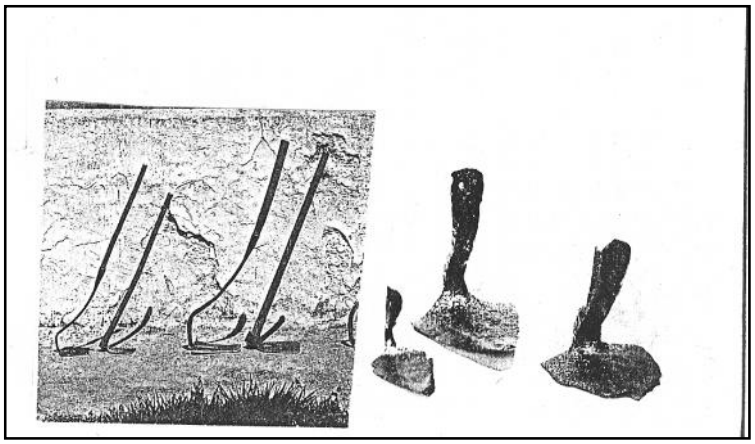

صورة تمثل مجموعة من الأدوات الخاصة بقلب التربة تم العثور عليها مع قطع أثرية أخرى في المغارة المذكورة.

مصدر الصورة: نفس المصدر، ص:56

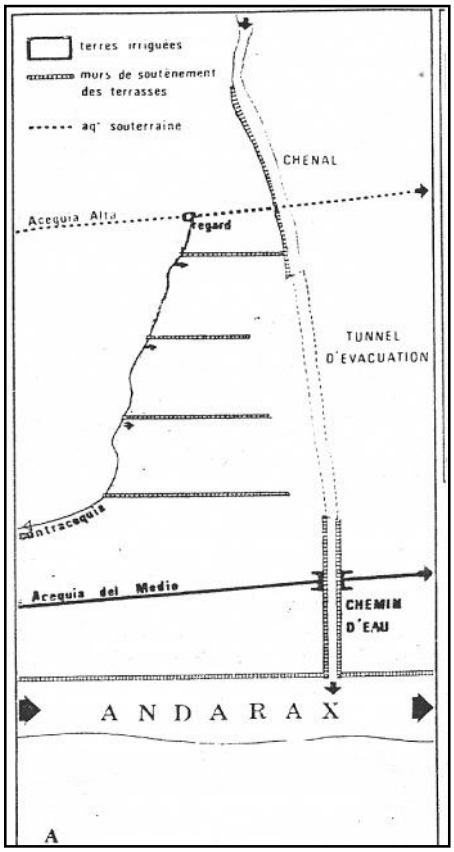

رسم يمثل مساحة مهيأة للزراعة وطرق جريان المياه
في المشروع المائي الذي تم الكشف عنه في هضبة الأندرش

مصدر الرسم: L'hydraulique agraire dans l'Espagne médiévale…op. cit., p. 54.

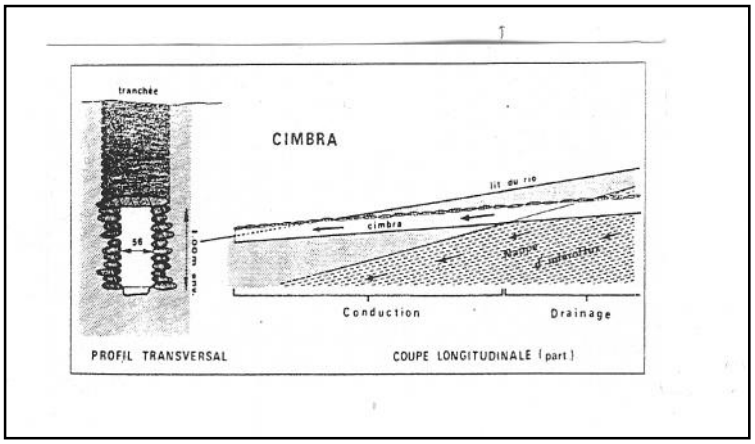

مقطع طولي وعرضي يبين طريقة حجز وتصريف المياه عبر القناة الباطنية

مصدر الرسم: نفس المصدر، ص:56

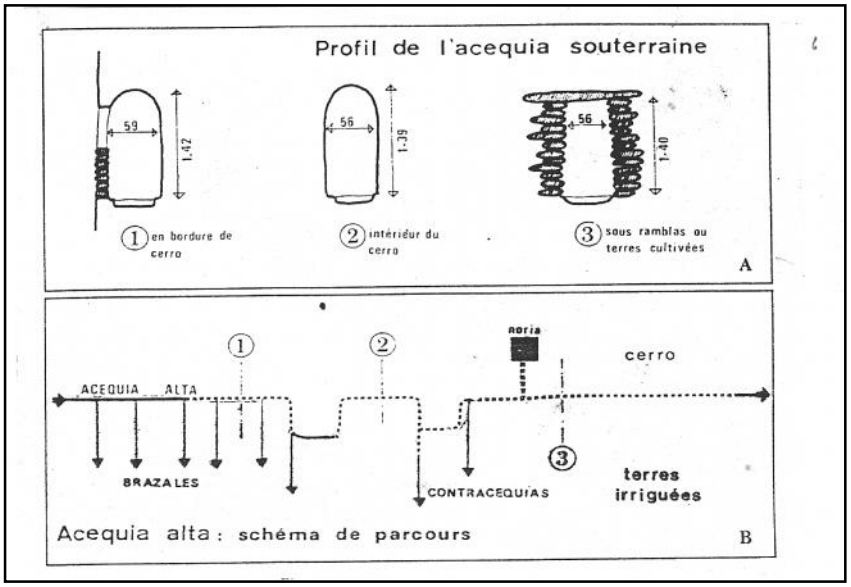

رسمان يمثلان جانبا من القناة الباطنية وطرق جريان المياه

مصدر الرسم: نفس المصدر، ص: 55